ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

جميل أنْ يفرح الناس ، وأنْ يستبشروا برحمة الله ، لكن ما لهم إذا أصابتهم سيئة بما قدَّمتْ أيديهم يقنطون ؟ فمُجرى الرحمة هو مُجرى السيئة ، لكنهم فرحوا في الأولى لأنها نافعة في نظرهم ، وقنطوا في الأخرى ؛ لأنها غير نافعة في نظرهم ، وكان عليهم أنْ يعلموا أن هذه وتلك من الله ، وأن له سبحانه حكمةٌ في الرحمة وحكمةٌ في المصيبة أيضاً .

إذن : أنتم نظرتم إلى شيء وغفلتم عن شيء ، نظرتُم إلى ما وُجد من الرحمة وما وُجد من المصيبة ، ولم تنظروا إلى مَنْ أوجد الرحمةَ ، ومَنْ أوجد المصيبةَ ، ولو ربطتم وجود الرحمة أو المصيبة بمَنْ فعلها لَعلمتُم أنه حكيم في هذه وفي تلك ، فآفة الناس أنْ يفصلوا بين الأقدار ومُقدِّرها . إذن : ينبغي ألاَّ تنظروا إلى ذات الواقع ، إنما إلى مَنْ أوقع هذا الواقع .

فلو دخل عليك ولدك يبكي ؛ لأن شخصاً ضربه ، فأول شيء تبادر به : مَنْ فعل بك هذا ؟ فإنْ قال لك : فلان تقول : نعم إنه يكرهنا ويريد إيذاءنا .. الخ فإنْ قال لك : عمي ضربني فإنك تقول : لا بُدَّ أنك فعلتَ شيئاً أغضبه ، أو أخطأتَ في شيء فعاقبك عليه .

إذن : لم تنظر إلى الواقع في ذاته ، إنما ربطت بينه وبين مَنْ أوقعه ، فإنْ كان من العدو فلا بُدَّ أنه يريد شراً ، وإنْ كان من الحبيب فلا بُدَّ أنه يريد بك خيراً .

وهكذا ينبغي أن نربط بين الموجود ومَنْ أوجده ، فإنْ كان الذى أوجد الواقع رَبٌّ فيجب أنْ نتأمل الحكمة ، ولن نتحدث عن الرحمة ، لأن النفع ظاهر فيها للجميع ، لكن تعال نسأل عن المصيبة التى تُحزن الناس ، فيقنطوا وييأسوا بسببها .

ونقول : لو نظرتَ إلى مَنْ أنزلها بك لارتاح بالك ، واطمأنتْ نفسك ، فالمصيبة تعنى الشيء الذى يصيبك ، خيراً كان أم شراً ، ألاَ ترى قوله تعالى : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ .. (٧٩)﴾ [النساء]

فالمصيبة لا تُذَمُّ فى ذاتها ، إنما بالنتيجة منها ، وكلمة أصاب فى الحسنة وفى السيئة تدلُّ على أن سهمها أُطلق عليك ، وعمرها مقدار وصولها إليك ، فهى لا بُدَّ صائبتك ، لنَ تتخلَّف عنك أبداً ، ولن تُخطئك ؛ لأن الذى أطلقها إله ورب حكيم ، فإنْ كانت حسنة فسوف تأتيك فلا تُتعب نفسك ، ولا تُزاحم الناس عليها ، وإنْ كانت مصيبة فإياك أنْ تقول : أحتاط لها لأدفعها عن نفسى ؛ لأنه لا مهربَ لك منها .

ثم لماذا تقنط وتيأس إنْ أصابتْك مصيبة ؟ لماذا لا تنتظر وتتأمل ، لعل لها حكمة ، ولعل من ورائها خيراً لا تعلمه الآن ، وربما كانت ضائقة سوف يكون لها فرج قريب.

ألم تقرأ : ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ .. (٢١٦)﴾ [البقرة]

أتذكرون حادث عمارة الموت وقد طردوا منها البواب وأسرته ، وجعلوا منها قضية فى المحكمة ، وبعد أن انهارتْ العمارة ، وتبيَّن للبواب وأسرته أن ما ظنوه شراً ومصيبة كان هو عيْن الخير .

إذن : لا تقنط من ضُرٍّ أصابك ، واعلم أن الذى أجراه عليك ربك ، وأن له حكمة فانتظر حتى تتكشف لك ، ولا يقنط إلا مَنْ ليس له ربٌّ يلجأ إليه .

ثم تعالَ نناقشك فى المصيبة التى قَنَط من أجلها : ألكَ دَخْلٌ فيها ؟ أم ليس لك دَخْل ؟ إنْ كان لك دَخْل فيها كالتلميذ الذى أهمل دروسه فرسب فى الامتحان ، فعليك أن تستقبل هذه المصيبة بالرِّضا ، فالرسوب يُعدِّل لك خطأك ، ويلفتك إلى ما كان منك من إهمال حتى تتدارك الأمر وتجتهد .

فإنْ كانت المصيبة لا دَخْلَ لك فيها ، كالذى ذاكر واجتهد ، ومع ذلك لم يُوفَّق لمرض ألمَّ به ليلة الامتحان ، أو لعارض عرض له ، نقول : إياك أنْ تفصل المصيبة عن مُجريها وفاعلها ، بل تأمَّل ما يعقُبها من الخير ، ولا تفصل المصيبة عن مُجريها عليك ولا تقنط .

وابحث عن حكمة ربك من إنزال هذه المصيبة بك ، كالأم التى تقول لابنها : يا بُنى أنت دائماً متفوق والناس تحسدك على تفوقك ، فلعل رسوبك يصرف عنك حسدهم ، ويُنجيك من أعينهم ، فيكفوا عنك .

وحينما يأتى أبوه يقول له : يا بنى هَوِّن عليك ، فلعلَّك إنْ نجحت هذا العام لم تحصل على المجموع الذى تريده ، وهذه فرصة لتتقوى وتحصل على مجموع أعلى . إذن : لن تُعدم من وراء المصيبة نفعاً ، لأن ربك قيوم ، لا يريد لك إلا الخير .

لذلك حين تستقرىء الأحداث تجد أناساً فُضِحوا وأُخذوا بما لم يفعلوا ، وذهبوا ضحية شاهد زور ، أو قاضٍ حكَم عن هوىً .. إلخ لكن لأن ربك قيوم لا يغفل يُعوِّض هذا المظلومَ ويقول له : لقد أصبح

لك نقطة عندى فى حسابك ، فأنت اتُّهِمْتَ ظلماً ، فلك عندى إذا ارتكبتَ جريمة أنْ أنجيك منها فلا تُعاقَب بها ، وأنت يا من عَمَّيْتَ على العدالة ، وشهدتَ زوراً ، أو : أخذت ما ليس لك ، أو أفلتَّ من العقاب فسوف أُوقعك فى جريمة لم تفعلها .

إذن : القنوط عند المصيبة لا محلَّ له ، ولو ربطتَ المصيبة بمجريها لعلمتَ أنه حكيم ، ولا بُدَّ أنْ تكون له حكمة قد تغيب عنك الآن ، لكن إذا أدرتَ المسألة فى نفسك ، فسوف تصل إلى هذه الحكمة .

وحين ننظر إلى أسلوب الآية نجد فيه مفارقات عديدة ، ففى الكلام عن الرحمة قال ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا .. (٣٦)﴾ [الروم] فاستخدم أداة الشرط (إذا) .

أما فى المصيبة فقال ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦)﴾ [الروم] فاستخدم أداة الشرط (إنْ) ، فلماذا عدلَ عن رتابة الأسلوب من إذا إلى إن ؟

قالوا : حين تقارن بين النعَم وبين المصائب التى تنزل بالإنسان فى دنياه تجد أن النعم كثيرة والمصائب قليلة ، فنعم الله متوالية عليك فى كل وقت لا تُعدُّ ولا تحصى ، أمَّا المصائب فربما تُعَدُّ على الأصابع .

لذلك استخدم مع النعَم (إذا) الدالة على التحقيق ، ومع المصيبة استخدم (إنْ) الدالة على الشك ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١)﴾ [النصر] فاستعمل إذا لأنها تدلُّ على التحقيق وتُرجِّح حدوث النصر ، وقال سبحانه : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ .. (٦)﴾ [التوبة]

كما نلحظ فى أسلوب الآية أنها لم تذكر السبب فى إذاقة الرحمة ، إنما ذكرتْ سبب المصيبة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٣٦) ﴾ [الروم] ليدلَّ على عدله تعالى فى إنزال المصيبة ، وتفضُّله فى إذاقة الرحمة ؛ لأن الرحمة من الله والنعَم فضل من الله .

لكن فى المصيبة قال ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٣٦) ﴾ [الروم] فذكر العلّة حتى لا يظن أحد أن الله تعالى يُجرى المصيبة على عبده ظلماً ، بل بما قدَّمَتْ يداه ، فالمسألة محكومة بالعدل الإلهى .

وبين الفضل والعدل بونْ شاسع ، فلو جاءك خَصْمان لتحكم بينهما تقول : أحكم بينكما بالعدل ، أم بأفضل من العدل ؟ يقول : وهل هناك أفضل من العدل ؟ إذن : نريد العدل ، لكن تنبَّه لأن العدل يعطيك حقك ، والفضل يُتركك[1] حقك .

فكأن الحق سبحانه يقول لنا : إياكم أنْ تظنوا أنكم ناجون بأعمالكم ، لا إنما بالتفضل عليكم : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

يعنى : مهما جمعتُم من الطاعات فلن تكفيكم ، ولا نجاةَ لكم إلا برحمة من الله وفضل .

فالحق - تبارك وتعالى - يريد منا أن نعرف أن رحمة الله وسعتْ كل شىء ، وأنه مع ما أنعم به عليكم من نعَم لا تُعَدُّ

(١) وَتَره حقه وماله : نقصه إياه . وفى التنزيل العزيز : ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) ﴾ [محمد] . أى : لن ينقصكم من ثوابكم شيئاً . [لسان العرب - مادة : وتر] . والمعنى المقصود أن الحكم بالعدل يعطى كلا المتخاصمين حقه ، أما الفضل فمن يحكم قد ينظر إلى فضيلة أحدهما وعلو همته وشرفه فينقص من حقه ، لأنه يعلم رجاحة عقله وقناعته وعفته . والله أعلم .

ولا تُحصى لا يُعاقبكم إلا بشيء اقترفتموه يستحق العقاب ؛ ذلك لأنه رَبٌّ رحيم حكيم .

وما دام الأمر كذلك فانظر إلى آثار رحمة ربك فى الكون ، وتأمل هذه النعَم ، وقفْ عند دقَّة الأسلوب فى قوله سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

فالعَدُّ يقتضى الكثرة و ﴿ نِعْمَتَ .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم] مفرد ، فكيف نعدُّ يا رب ؟ قالوا : نعم هى نعمة واحدة ، لكن فى طياتها نِعَم فلو فتشتها لوجدتَ عناصر الخيرية فيها لا تُعَد ولا تُحصَى .

لذلك لما تعرضتْ الآيات لعَدِّ نعَم الله استخدمتْ (إنْ) الدالة على الشكِّ ؛ لأنها لا تقع تحت الحَصَر ولا العَدِّ ، لكن على فرض إنْ حاولت عدَّها فلن تُحصيها ، والآن ومع تقدُّم العلوم وتخصُّص كليات بكاملها لدراسة علم الإحصاء ، وخرجوا علينا بإحصاءات لأمور ولأشياء كثيرة فى حياتنا ، لكن لم يتعرض أحد لأنْ يُحصى نعمة الله ، لماذا ؟

لأن الإقبال على الإحصاء لا يكون إلا مع مظنَّة أنْ تُعدَّ وتستوعب ما تحصيه ، فإنْ كان خارج نطاق استيعابك فلن تتعرض لإحصائه كما لم يتعرَّضْ أحد مثلاً لعَدِّ الرمال فى الصحراء ؛ لذلك يُشككم الله فى أنْ تعدُّوها ﴿ وَإِن تَعُدُّوا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم] فهو أمر مُستبعد ، ولن يكون .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) ﴾

يبسط : يُوسِّع ، ويقدر : يعنى يُضيِّق .

يعنى : ألم يروا هذه المسألة ، فواحد يُوسِّع الله عليه الرزق ، وآخر يُضيِّق عليه ، وربما صاحب السعة لم يتعب فيها ، إنما جاءته من ميراث أو خلافه ، وصاحب الضيق يكدّ ويتعب ، ومع ذلك فعيشته كفاف ، لذلك استقبل الفلاسفة هذه المسألة بما فى ضمائرهم من إيمان أو إلحاد ، فهذا ابن الراوندى[1] الملحد يقول :

كَمْ عَالمٍ عَالمٍ أعْيَتْ مَذَاهبه وجَاهلٍ جَاهلٍ تَلْقَاهُ مرْزُوقا

هَذَا الذِى تركَ الأوهامَ حَائرةً وَصيَّر العَالم النِّحْرير زِنْديقا

فردَّ عليه آخر ممن امتلأت قلوبهم بالإيمان :

كَمْ عَالمٍ عالمٍ قَدْ باتَ فى عُسْرٍ وجَاهلٍ جاهلٍ قَدْ باتَ فى يُسْرٍ

تحيَّر الناسُ فى هَذَا فقُلْتُ لهم هَذا الذِى أوجبَ الإيمان بالقدرِ

فالعالم لا يسير بحركة ميكانيكية ثابتة ، إنما بقيومية الخالق سبحانه عليه ، فانظر إلى البسط لمن بسط الله له ، والقبض لمن قبض الله عنه ، ولا تعزل الفعل عن فاعله سبحانه ، وتأمل أن الله تعالى واحد ، وأن عباده عنده سواء ، ومع ذلك يُوسِّع على أحدهم ويُضيِّق على الآخر .

إذن : لا بُدَّ أن فى هذه حكمة ، وفى تلك حكمة أخرى ، ولو تتبعتَ عواقب السعة هنا والتضييق هناك لتراءتْ لك الحكمة .

---

(١) هو : أحمد بن يحى بن إسحاق ، أبو الحسين الراوندى ، فيلسوف مجاهر بالإلحاد ، من سكان بغداد ، نسبته إلى « راوند » من قرى أصبهان . قال ابن حجر العسقلانى : كان أولاً من متكلمى المعتزلة ثم تزندق واشتهر بالإلحاد ، وضع كتاباً فى قدم العالم ونفى الصانع وتصحيح مذهب الدهر والرد على مذهب أهل التوحيد ، وكتاباً فى الطعن على محمد ﷺ . توفى عام ٢٩٨ هـ بين الرقة وبغداد . [الأعلام للزركلى ١/ ٢٦٧] .

ألا ترى صاحب سعة ورزق ونعم كثيرة ، ومع ذلك لم يستطع تربية أولاده ؛ لأن مظاهر الترف جرفتهم إلى الانحراف ، ففشلوا فى حياتهم العملية . وفى المقابل نرى الفقير الذى يعيش على الكفاف يتفوق أولاده ، ويأخذون أعلى المراتب ؟ إذن : ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الروم] وفق حكمة يعلمها سبحانه وتعالى .

وسبق أن ذكرنا أن فى ألمانيا مدرستين فلسفيتين فى الإلحاد ، إحداهما لواحد اسمه (جيبل) ، والأخرى لـ (بختر) أحدهما : ينكر أن يكون للعالم إله ، يقول : لو كان للعالم إله حكيم ما خلق الأعمى والأعرج والأعور .. الخ فالحكمة فى الخَلْق تقتضى المساواة ، فأخذ من الشذوذ فى الخَلْق دليلاً على إلحاده .

أما الآخر فقال : ليس للكون إله ، إنما يسير سَيْراً ميكانيكياً رتيباً ، ولو كان فيه إله لكان يخلق الخَلْق على صور مختلفة ، وتكون له إرادة مطلقة عن الميكانيكا ، فأخذ ثبات النظام دليلاً على إلحاده ليناقض مذهب سابقه .

إذن : المسألة عندهم رغبة فى الإلحاد بأىٍّ شكل ، وعلى أية صورة ، واستخدام منهج مُعْوج يخدم القضية التى يسعون إلى إثباتها .

ونقول فى الرد على الأول الذى اتخذ من الشذوذ فى الكون دليلاً على عدم وجود إله حكيم : الشذوذ الذى ذكرتَ شذوذ فى الأفراد الذين يُعوض بعضهم عن بعض ، فواحد أعمى ، وآخر أعور يقابلهم ملايين المبصرين ، فوجود هذه النسبة الضئيلة لا تفسد القاعدة العامة فى الخَلْق ، ولا تؤثر على حركة البشر فى الكون فالصحيح يعوض غير الصحيح .

أمـا النظام الثـابت الذى يريده الثـانى فـعليـه أن ينظر إلى المـلأ الأعلى ، وفى الكون الأعلى من شمس وقمر ونجوم ..الخ فسيرى فيه نظاماً ثابتـاً لا يتغـير ، لأن الشذوذ فى هذه المـخلوقات يفـسد الكون كله ؛ لذلك خلقه الله على هيئة الثبات وعدم الشذوذ .

إذن : فى النظام العـام للكون نـجد الثـبـات ، وفى الأفـراد الذين يغنى الواحد منهم عن الآخر نـجد الشذوذ والاختلاف ، فالثـبات يثبت حكمة القدرة ، والشذوذ يثبت طلاقة القدرة .

فيـا مَنْ تريد ثبات النظام دليلاً على الإيمـان ، فالثبات مـوجود ، ويا مَنْ تريد شذوذ النظام دليلاً على الإيمان ، فالشذوذ موجود ، فما عليكمـا إلا أن تتـفـقا وأن ينـفتح كل مـنكما عـلى الآخر لتـصـلا إلى الصواب .

ومسألة الـرزق لها فلسفة فى الإسـلام ، فالحق سبحانـه أخبرنا بأنه الرزَّاق ، فمـرة يرزق بالأسبـاب ، ومرة يرزق بلا أسـباب ، لكن إياك أنْ تغتر بالأسباب ، فقـد تقدم الأسباب وتسعى ثم لا يأتيك منها رزق ، ويخيب سَعْيك كالفلاح الذى يأخذ بالأسباب حتى يقارب الزرع على الاستواء فتأتيه جائحة فتهلكه ، فاحذر أن تغتر بالأسباب ، وانظر إلى المسبِّب سبحانه .

وقلنا : ينبغى أنْ تتحرى إلى الرزق أسبابه ولا تشغلنَّ بعدها بالك بأمره ، فقد تكفل به خالقك الذى استدعاك للوجود ، وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

تَحَرَّ إلى الرزْقِ أسْبابَهُ ... ولاَ تشغلنْ بعدَهَا بَالَكا
فَإنَّـك تجهــلُ عـنوانـه ... ورِزْقُكَ يعرفُ عُنْـوانكا

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الروم]
قال (لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) لأن مسألة الرزق هذه تحتاج إلى إيمان بحكمة الرازق سبحانه فى الإعطاء وفى المنع .

ونلحظ على أسلوب الآية قوله تعالى فى البسط : ﴿لِمَن يَشَاءُ .. ﴿٣٧﴾﴾ [الروم] وفى التضييق ﴿وَيَقْدِرُ .. ﴿٣٧﴾﴾ [الروم] ولم يقُلْ لمن يشاء ؛ لأن البسط فى نظرنا شىء محبوب نفرح له ونتمناه فقال ﴿لِمَن يَشَاءُ .. ﴿٣٧﴾﴾ [الروم] لنطمئن نحن إلى أننا سندخل فى هؤلاء الذين سيُبْسط لهم فى الرزق ، أما فى التقتير فلم يقُلْ (لمنْ) ليظل مبهماً يستبعده كلٌّ منّا عن نفسه .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾

حينما نتأمل النسق القرآنى هنا نجد أن الله تعالى ذكر أولاً البسْطَ فى الرزق ، ثم التقتير فيه ، ثم أكّد بعده مباشرة على حقّ ذى القُرْبى والمسكين وابن السبيل ، وكأنه يلفت أنظارنا أن هذه الحقوق لا تقتصر على مَنْ بسط له الرزق ، إنما هى على الجميع حتى مَنْ كان فى خصاصة ، وضُيّق عليه رزقه ، فلا ينسى هؤلاء .

لذلك يذيل الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الروم] والجميع : مَنْ بُسط له ، ومَنْ قُتر عليه يريدون وجه الله .

وبمقارنة هذه الآية بآية الزكاة : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ

وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ[1] وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)﴾ [التوبة]

فلم تذكر ذا القربى الذى ذكر هنا ، وكأن الآية تشير لنا إلى أمر ينبغى أن نلتفت إليه ، وهو أن القريب عيب أن نعطيه من مال الزكاة ، وهذه آفة وقع فيها كثير من الأغنياء وحتى المتدينين منهم ، فكثيراً ما يسألون : لى ابن عم ، أو لى قريب أأعطيه شيئاً من زكاة مالى ؟

وكنتُ أقول للسائل : والله ، لو علم ابن عمك أنك تعطيه من مال الزكاة ما قبله منك ؛ لأن للقريب حقاً ، سواء أكنتَ غنياً تملك نصاب الزكاة ، أو لم تصل إلى حد النِّصَاب .

إذن : لا تربط هؤلاء الثلاثة ـ القريب والمسكين وابن السبيل ـ بمسألة الزكاة ، فلهم حَقٌّ حتى على الفقير الذى لا يملك نصاباً ، وعلى مَنْ ضُيِّق عليه رزقه .

ومع هذا الحق الذى قرره الشرع للقريب نجد كثيرين يأكلون حقوق الأقارب ، ويحتالون لحرمانهم منها ، فمثلاً بعض الناس لا ينجب ذكوراً ، فيكتب أملاكه للبنات ليحرم عمهم أو أبناء عمومتهم من الميراث ، مع أن البنت لها نصف التركة ، وإنْ كُنَّ أكثر من واحدة فلهُنَّ الثلثان ، ويُوزَّع الثلث على العم أو ابن العم ؛ ذلك لأن البنات فى هذه الحالة ليس لهن ذَكَر عصبة ، فيجعلها الشرع فى العم أو ابن العم .

والشارع الحكيم يوازن بين الأطراف ، فيأخذ منك ويعطيك ،

(١) الغارمون : جمع غارم . والغارم : مَن لزمه دين بحق وبغير حق . والمغرم : الغرامة والدَّيْن الثقيل . [القاموس القويم ٢/٥٢] .

فلماذا في حالة موت الوالد عن هؤلاء البنات ، وليس لهُنَّ ميراث يَعُدْن على العم أو ابن العم بالنفقة ويقاضونه في المحاكم ، فلماذا نحرمهم حقوقهم ونطالب نحن بحقوقنا ، فهذا نوع من التغفيل .

لماذا لا نعطي العم أو ابن العم وهو الذي سيحمي البنات ويسهر على راحتهن ، ويقف بجوارهن حال شدتهن ؟

إياك - إذن - أنْ تُدخِل الأقارب في الزكاة أو تربط مساعدتهم بالقدرة ؛ لأن لهم عليك حقاً حال رخائك وحال شدتك .

ويكفي أن الحق سبحانه خصَّهم بقوله ﴿ذَا الْقُرْبَىٰ .. (٣٨)﴾ [الروم] ولم يقُلْ : ذا المسكنة ، أو ذا السبيل ، وكلمة (ذو) بمعنى صاحب ، تدل على المصاحبة الدائمة والملازمة ، فلا نقول : فلان ذو علم لمن علم قضية أو قضيتين ، إنما لمن اتصف بالعلم الواسع وتمكَّن منه ، كذلك لا نقول فلان ذو خلق إلا إذا كان الخُلُق صفة ملازمة له لا تنفك عنه .

ومن ذلك نقول : ذو القربى يعني ملاصقاً لك لا ينفك عنك ، فيجب أنْ تراعي حقَّه عليك ، فتجعل له نصيباً ، حتى إنْ لم تكُنْ تملك نصاباً ، وكذلك للمسكين وابن السبيل ؛ لأن الله ذكرهم معاً في غير بند الزكاة ، فدلَّ ذلك على أن لهم حقاً غير الزكاة الواجبة .

ونلحظ أن القرآن رتَّبهم حسب الأهمية والحاجة ، فأولهم القريب لقرابته الثابتة منك ، ثم المسكين وهو متوطن معروف لك ، ثم ابن السبيل العابر الذي تراه يوماً ولا تراه بعد ذلك ، فهو حسب موضعه من الحال .

والمسكين قد يتـغير حاله ، ويتيسر له الرزق فـيُوسِّع الله عليه ، وابن السـبيـل يعود إلى بلده ، فـالوصف الثـابت لذى القـربى ؛ لذلك وصفه الله تعالى بما يدل على الثبات .

ثم قال ﴿ حَقَّهُ .. (٣٨) ﴾ [الروم] فالحق مـلازم له وهو أَوْلَى به ، لذلك لم يَقُل مثـلاً : وآت ذا القربى حقـه ، والمسكين ، وابن السـبيل حقوقهم .

وقد مثَّلوا لذلك بقولهم : قـال الأمير : يدخل علىَّ فلان ، وفلان ، وفلان ، فالإذن بالدخول للأول يتبعه فى ذلك الباقون .

إذن : لهؤلاء الثـلاثة خصـوصية ، فـقد أمرك الله أنْ تعـطيهم من لحـمك ، وألاَّ تربطهم بالزكـاة ولا ببـسط الرزق ، أمـا باقى السـبعـة المستحقون للزكاة فلم يُلزمك نحوهم بشىء غير الزكاة المفروضة .

ولما حـدث نقاش بين الـعلماء حول الـمراد بالمـسكين والفقـير ، أيهـمـا أحـوج من الآخـر ؟ قالـوا : المـسكين مَنْ له مـال ، ولكن لا يكفيه(١) ، واستـشـهد أبو حنيـفة على هذا المعنى بقـوله تعالى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ .. (٧٩) ﴾ [الكهف] فـأثبت لـهم ملكية وسماهم مساكين . أما الفقير فهو الذى لا شىء له ، وعلى هذا فالفقير أحوج من المسكين ، فيدخل فى هذه الآية من باب أَوْلَى .

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس المسكين بهذا الطوَّاف الذى يطوف على الناس ، فـترده اللقمـة واللقمتـان ، والتمـرة والتمرتان . قـالوا : فما الـمسكين يا رسول الله ؟ قـال : الذى لا يجد غنىً يغنيـه ، ولا يُفطن له فيُـتصدق عليـه ، ولا يسأل الناس شيئاً » أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٥٣٩) وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٣٩) كتاب الزكاة ، واللفظ لمسلم .

وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ .. (٣٨)﴾ [الروم] أى : الإيفاء لهؤلاء ﴿خَيْرٌ.. (٣٨)﴾ [الروم] كلمة خير تُطلَق فى اللغة ، ويُراد بها أحد معنيين : مرة نقول خير ويقابلها شر كما فى قوله تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة] ، ومرة نقول : خير ونقصد الأخْير كالأحسن أى : أفعل تفضيل ، كما جاء فى قول الشاعر :

زَيْدٌ خِيَارُ النَّاسِ وابْنُ الأَخْيَر

لكن الشائع أن تُستعمل خير فى أفعل التفضيل كقول النبى ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير »[(١)] فخَيْر الأولى بمعنى أخير . لكن لمن ؟

﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ .. (٣٨)﴾ [الروم] أى : فى الوفاء بحقِّ ذى القربى والمسكين وابن السبيل ، يريد بذلك وجه الله ، لا يريد رياءً ولا سمعة ؛ لأن الذى يفعل خيراً يأخذ أجره ممَّن فعل من أجله ، فمَنْ عمل لله مخلصاً فأجره على الله ، ومَنْ عمل للناس رياءً وسمعةً فليأخذ أجره منهم .

وهؤلاء الذين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور] أى : فوجىء بوجود إله لم يكُنْ فى باله ولم يعمل من أجله .

فمعنى ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ .. (٣٨)﴾ [الروم] أى : يقصدون بعملهم

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٦٦/٢ ، ٣٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) ، وابن ماجه فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وجه الله ، سواء رآه الناس ، أو أخفى عمله ، حتى لا تعلم شماله ما صنعتْ يمينه ؛ لأن الأمر قائم على النية ، فقد تعطى أمام الناس ونيتك أنْ يتأسَّوْا بك ، أو لتكُفَّ عنك ألسنتهم وقدحهم فى حقك .

وحين تعطى علانية بنية خالصة لله فإنها صدقة مخصَّبة للعطاء ، مخصِّبة للأجر ؛ لأنك ستكون أُسْوة لغيرك فيعطى ، ويكون لك من الأجر مثله ؛ لأن مَنْ سَنَّ سنة حسنة فله أجرها وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة .

والقرآن الكريم عرض علينا هذه القضية فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

ثم يعطينا مثلاً توضيحياً : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ[1] عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

فمثَل المرائى كهذا الحجر الناعم الأملس حين يصيبه المطر ، وعليه طبقة من التراب يزيحها المطر ، ويبقى هو صلْداً ناعماً لا يحتفظ بشىء ، ولا ينبت عليه شىء .

وهذا المثَل يُجسِّد لنا خيبة سَعْى المرائى ، وأنه مغفل ، سعى واجتهد فانتفع الناس بسَعْيه ، وتعدَّى خيره إلى غيره ، وخرج هو خالى الوفاض من الخير ومن الثواب .

ثم يذكر الحق سبحانه المقابل : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ

---

(١) الصفوان : الحجر الصلد الضخم الذى لا ينبت شيئاً . [لسان العرب ـ مادة : صفا] والصلد : الأملس الذى لا يصلح للزرع . والوابل : المطر الغزير . [القاموس القويم للقرآن الكريم] .

مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) ﴾ [البقرة]

فالصدقة ابتغاء وجه الله كالأرض الخصْبة حين ينزل عليها المطر ، فيأتي نباتها مضاعفاً مباركاً فيه ، فإنْ لم يكُنْ مطر كفاها الطَّل لتنبت وتُؤتى ثمارها ، ولو قال : كمثل جنة لكانت كافية لكنها ﴿ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ .. (٢٦٥) ﴾ [البقرة] يعنى : على مكان مرتفع ليدلَّ على خصوبتها ، فكلما كانت الأرض مرتفعة زادتْ خصوبتها ، وخلَتْ من المياه الجوفية التى تؤثر على النبات .

وهذه الجنة تُرْوى بالمطر يأتيها من أعلى ، فيغسل الأوراق والغصون ، فتزيد نضارتها وجودتها ، والأوراق هى رئة النبات .

والله تعالى يترك لآثار الذات فى الناس تذكرةً وعبرة ، فواحد يفعل الخير بآخر ليشتريه به ، أو ليُخضع عنقه بهذا الجميل ، فتكون النتيجة الطبيعية أنْ ينكر الآخر جميله ، بل ويكرهه ويحقد عليه ، وهذا جزاء وفاقٌ لمن عمل العمل لغير وجه الله .

وهو معنى قولهم : اتَّقِ شر مَنْ أحسنتَ إليه ، لماذا ؟ لأنه حين يراك يتذكر ما لك من يَد عليه ، وما لك من فضل ، فيخزى ويشعر بالذلة ؛ لأن وجودك يدكُّ كبرياءه ؛ لذلك يكره وجودك ، ويكره أنْ يراك .

فالحق سبحانه يقول : احذروا أنْ تُبطلوا المعروف بالرياء ، أو بالأغراض الدنية ؛ لأن معروفك هذا سيُنكر ، وسينقلب ما قدمتَ ، من خير شراً عليك . إذن : عليكم بالنظر فى أعمالكم إلى وجه الله لا إلى غيره ، فإنْ حدث وأنكر جميلك فجزاؤك محفوظ عند الله ،

وكأن ربك - عز وجل - يغار عليك ، ويريد أنْ يحفظ لك الجميل ويدخره عنده .

وهذا المعنى عبَّر عنه الشاعر بقوله(١) :

أقُولُ لأصْحاب المرُوءَات قَولةً ... تُريحهُمُ إنْ أحسَنُوا وتفضَّلُوا
يَسيرُ ذوو الحَاجَات خَلْفَكَ خُضَّعاً ... فَإنْ أدْركُوهَا خلَّفوكَ وهَرْوَلُوا
فَلا تَدعِ المعْروفَ مهما تنكَّروا ... فَإنَّ ثوابَ الله أربى وأجْزَلُ

وسبق أنْ ذكرتُ قصة الرجل الذى قابلنا فى الطريق ونحن فى الجزائر ، فأشار لنا لنوصله فى طريقنا ، فتوقف صاحب السيارة وفتح له الباب ، لكنه قبل أنْ يركب قال (على كام) ؟ يعنى : ثمن توصيله . فقال صاحب السيارة : لله . فقال الرجل (غلّتها يا شيخ) .

لذلك يقول بعض العارفين : إن الذين يريدون بأعمالهم وجه الله هم الذين يُغْلون أعمالهم ، أى : يرفعون قيمتها ، ويضاعفون ثوابها .

وقوله تعالى : ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ .. (٣٨) ﴾ [الروم] بعد قوله : ﴿ وَيَقْدِرُ .. (٣٧) ﴾ [الروم] يدل فى ظاهره على أنه يأخذ منك مع أنك مُقلٌّ ، وهذا يدخل فى إطار قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. (٩) ﴾ [الحشر]

وقلنا : إن الشارع حكيم ، فإذا ألزمك وأخذ منك فإنما ذلك ليعطيك إنْ احتجتَ ، وكأنه يقول لك : اطمئن فقد أمَّنْتُ لك حياتك ، إن أصابك الفقر ، أو كنت فى يوم من الأيام مسكيناً أو ابن سبيل ، فكما فعلتَ سيُفعل بك .

وهذه المسألة واضحة فى كفالة اليتيم ، فلو أن المجتمع الإيمانى عوَّضه عن أبيه عملاً بقول النبى ﷺ : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى

---

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

الجنة»[1] لاطمأنَّ كلُّ أب على أولاده إنْ مات وتركهم : لأنهم فى مجتمع يُعوِّضهم عن أبيهم بآباء كثيرين .

والإنسان إنْ كان آمناً مُنعَّماً ، فإنما يُنغِّص هذه النعمة أنها عُرْضة لأنْ تزول ، فيريد الله أنْ يُؤمِّن لعبده الحياة الكريمة فى امتداده من بعده ، وهذا هو التأمين الحق الذى أرسله الله قضية تأمينية فى الكون ، ليست فى شركات التأمين ، إنما فى يده سبحانه حيث قال :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٩) ﴾ [النساء] فإذا اتقوا الله وقالوا القول السديد ، فإن يتيمهم يصادف أناساً يكفلونه ، ويخافون عليه ، ويتولَّوْن أمره .

وسبق أنْ تعرَّضْنا فى سورة الكهف لقصة الجدار الذى تبرع الخضر - عليه السلام - ببنائه مع أنه فى قرية أهلها لئام[2] منعوهم حتى الطعام . وقلنا : إن سؤال الطعام هو أصدق سؤال ، ولا يُردُّ سائله ، ومع ذلك بناه الخضر ، وقال فى بيان أمر الجدار : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا .. (٨٢) ﴾ [الكهف]

فصلاح الأبويْن ينفع الغلامين ، فيُسخِّر الله لهما مَنْ يبنى لهما الجدار ، ويحافظ لهما على كنزهما حتى يكبرا ، ويستطيعا حمايته من

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٥) من حديث سهل بن سعد ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وتمام الحديث : « وقال بإصبعيه السبابة والوسطى » ومعنى السبابة : لأنها يسب بها الشيطان حينئذ . وفى رواية « السبَّاحة » لأنها يُسبح بها فى الصلاة فيشار بها فى التشهد لذلك . قاله ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (١٠/٤٣٦) .

(٢) اللئام : جمع لئيم ، وهو الدَّنِىء الأصل الشحيح النفس . [لسان العرب - مادة : لأم] .

هؤلاء اللئام الذين إذا علموا بأمره نهبوه من هذيْن الصغيريْن .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن الفارق بين الهدية والصدقة ، فيقول:

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا[1] لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يعرف أن خَلْقه يفعلون الخير ، ويطلبون الأجر عليه ، لكن هذا الطلب قد يضيع إذا راءوا فى أعمالهم ، وقد يكون الأجر على قدر العمل إذا خلا من الرياء ، لكن الحق سبحانه يريد أن يرتفع بالصدقة أو بالزكاة إلى مستوى عَالٍ ، فيأخذ صاحبها الثمن من يد الله سبحانه مضاعفاً ، وطلب الزيادات يكون فى النية .

فالمؤمن مثلاً يعلم أنه إذا حُيِّيَ بتحية فعليه أنْ يردَّها بخير منها ، فقد يأتى فقير ويقدم لأحد الأغنياء هدية على قدر استطاعته ، وفى نيته أنْ يردَّها الغنى بما يناسب غنَاه ، إذن : فهو حين أعطى يطمع فى الزيادة ، وإن كانت غير مشروطة ، ويجوز أنْ يردَّ الغنىُّ على الهدية بأفضل منها ، ويجوز ألاَّ يردَّها أصلاً .

فقوله تعالى : ﴿ وما آتيتم مِّن رِّبًا .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [الروم] أى : الزيادة

---

(١) قال ابن عباس فى هذه الآية : « الربا رباءان ، ربا لا بأس به ، وربا لا يصلح . فأما الربا الذى لا بأس به فهدية الرجل إلى الرجل يريد فضلها أو أضعافها » . [أخرجه ابن أبى حاتم] وفى قول آخر له قال : هو ما يُعطى الناس بعضهم بعضاً ، يعطى الرجلُ الرجلَ العطية يريد أن يعطى أكثر منها . [أخرجه ابن جرير الطبرى] أورد السيوطى هذين الأثرين فى الدر المنثور ٦/٤٩٥ .